المحاضرة الخامسة: مراحل تطورعلم الكلام وأهم المتكلمين

من خلال استعراض كتب العقيدة والفرق الإسلامية، يتضح أن الكلام في العقيدة ظهر في أواخرعصر الصحابة رضي الله عنهم، ولم يكن بعد قد اتضحت معالمه، وأصبح هو الأصل في تقرير العقيدة، ولكن ضل الكلام في هذه الحقبة في بعض جوانب العقيدة دون البعض, وموافقة أغلب المتكلمين لأهل السنة في سائر أبواب العقيدة، حتى إذا اجتمعت هذه الأصول التي تكلم فيها المتكلمون ولملم شتاتها ظهر علم الكلام الذي يمثل الشق والطرف المخالف لأهل السنة في إثبات وتقرير العقائد ابتداء على أيدي المعتزلة.

فقد روى مسلم، بسنده عن يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة، معبد الجهني

يقول الشهرستاني: "أما الاختلافات في الأصول فحدثت في آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي، ويونس الأسواري، في القول بالقدر، وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر)

ثم ظهر القول بخلق القرآن ونفي الصفات على يد الجعد بن درهم، قال بن كثير: "كان الجعد بن درهم من أهل الشام وهو مؤدب مروان الحمار – مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية – ولهذا يقال له: مروان الجعدي – فنسب إليه -، وهو شيخ الجهم بن صفوان، الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية الذين يقولون أن الله في كل مكان بذاته"

وفي مقابل غلو الخوارج برز قرن المرجئة والكلام في الإيمان, وظهر الكلام في الإرجاء، وإخراج العمل عن مسمى الإيمان، وأول من أظهر هذا القول، ذر ابن عبدالله الهمداني

وقيل أول من أحدث الإرجاء وتكلم في مسألة الإيمان قيس الماصر، نقل الحافظ ابن حجر ذلك عن الأوزاعي قال: أول من تكلم في الإرجاء رجل من أهل الكوفة يقال له قيس الماصر

وقيل أول من أحدثه حماد بن أبي سليمان، شيخ أبي حنيفة، وتلميذ إبراهيم النخعي، ثم تبعه أهل الكوفة وغيرهم، ذكر ذلك شيخ الإسلام بن تيمية

ثم تأتي البدايات الأولى لوعيدية المعتزلة، والقول بالمنزلة بين المنزلتين، يقول البغدادي: ثم حدث في أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الغزالي، في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين, وانضم إليه عمر بن عبيد بن باب في بدعته, فطردهما الحسن من مجلسه, فاعتزلا إلى سارية من سواري مسجد البصرة, فقيل لهما ولأتباعهما "معتزلة" لاعتزالهم قول الأمة في دعواهم أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر وهكذا بدأ الكلام في مسائل الاعتقاد, وإن كان مفرق لكنه أشبه ما يكون بالسيل, يبدأ قطرات ثم ما يلبث أن يتجمع ثم يطبق بعد ذلك الأرض

وهكذا انتقل علم الكلام إلى طور جديد أكثر تطوراً وأكثر فاعلية ووضوح، على يد الجهم بن صفوان الذي جمع شتات الأقوال السابقة، وأخرجها من مخرج واحد، وصبها في بوتقة واحدة.

مراحل تطورعلم الكلام

إن الظواهر المختلفة لا تستقر ولا تترعرع إلا بعد أن تمر بمراحل مختلفة، وأطوار عديدة متغيرة، وأزمان متباعدة، ولقد انتقل علم الكلام بهذه المراحل، والأطوار جميعاً حتى صار ظاهرة تحمل العامة على مقتضاه، وتمثل هذه المرحلة منعطفاً خطيراً في عقيدة الأمة، وذلك لاضطلاع الخلافة الإسلامية عليها، وهو سبق خطير ليس له نظير قبله في تاريخ خلفاء الأمة، وكان ذلك في زمن المأمون العباسي، وهذه هي مرحلة الاستقرار الأول لعلم الكلام.

يقول الشهرستاني: "ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج علم الكلام، وأفردتها فناً من فنون العلم، وسمتها علم الكلام، إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام، فسمي النوع باسمها، وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان"

يقول شيخ الإسلام – ملاحظاً هذا التطور-: في أواخر عصر التابعين حدث ثلاثة أشياء الرأي، والكلام، والتصوف، فكان جمهور الرأي في الكوفة، وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة

ومر علم الكلام بمراحل مختلفة يمكن ذكرها فيما يلي:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة قدامى المتكلمين، كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبي الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، وغيرهم.

وقد تميزت هذه المرحلة بالتأثر بالمصطلحات اليونانية، وخاصة عند المتأخرين منهم كالعلاف، حيث ترجمت كتب الفلسفة اليونانية، وقد كانت المباحث الكلامية في هذه المرحلة متناثرة حسب موضوعاتها التي يتفق الكلام فيها دون وضع قواعد صريحة لهذا العلم، كما خلت هذه المرحلة من الاستعانة بعلم المنطق الأرسطي.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي دخل فيها الأشاعرة معترك الكلام في مقابل المعتزلة، وتعد هذه المرحلة أكثر تطوراً، نظراً لوضع قواعد علم الكلام ومقدماته التي يحتاج إليها الدارس مثل إثبات الجوهر – الفرد - وغيره.

المرحلة الثالثة: حيث تتميز هذه المرحلة بمناقشة كلام الفلاسفة وإدخال ذلك في علم الكلام كما تتميز أيضاً باستعمال المنطق الأرسطي في مقدمات علم الكلام ودراسة أدلته وبراهينه.

المرحلة الرابعة : تتميز بالخلط بين مذاهب الفلسفة والكلام واشتباه الأمر فيها على الكاتب والقارئ جميعاً. ثم التقليد المحض لتلك الآراء من غير نظر في أصولها

بعد تطرقنا لبدايات علم الكلام والمراحل التطورية التي مر بها يمكننا أن نتكلم فيما يلي عن بعض الشخصيّات التي يمكن أن نطلق عليها "آباء المتكلمين" مثل:

1- معبد الجهني (ت 699 م)

كان معبد من علماء القرن الأول وكان يُعرف عنه صدقه في الحديث، كما كان مشاركًا في الأحداث السياسيّة والثورات التي هاجت في عصره وشهد التحكيم بين علي ومعاوية، وقد دارت آراؤه الكلاميّة حول "نفي القدر ومع ذلك سُمي مذهبه بعكس مقصده "مذهب القدرية

معبد كان معارضًا للأمويّين الذين حرصوا على نشر المذهب الجبري بين الناس لحثهم على قبول الحكم الأموي باعتباره من قبل اللهأعدممنقبلالخليفةالاموي عبدالملكبنمروان

(ت2- غيلان الدمشقيّ743)م

عاش غيلان في القرن الأول الهجري وكان على صلة بالخليفة عمر بن عبد العزيز، ومذهب غيلان الكلامي هو أنه قرر ما قال به معبد أستاذه بالحريّة الإنسانيّة مخالفًا الأمويين من الجبريّة، موضحًا أن الإنسان مختار وأنه سوف يُحاسب على اختياره وهو القول الذي توسع فيه المعتزلة فيما بعد.

حينما تولى هشام بن عبد الملك أراد أن ينتقم من غيلان فاعتقله وحُمل إليه فى مجلس الخلافة فقال له هشام: مد يديك، فمدهما غيلان فقطعهما هشام بالسيف، ثم قال له: مد رجليك، فمدهما غيلان فقطعهما هشام بالسيف، وبعد أيام مر رجل بغيلان فقال له ساخرًا: "يا غيلان هذا قضاء وقدر" فقال له غيلان: "كذبت ما هذا بقضاء ولا قدر" فلما سمع الخليفة ذلك بعث إليه من حملوه إليه ثم صلبه على أبواب دمشق.

3- الجعد بن درهم

عاش بالشام وبدمشق تحديدًا ويتلخص مذهبه في أنه كان يقرر أن الله منزه عن صفات الحدوث، قُتل جعد بن درهم على يد الأمير خالد بن عبد الله بجامع واسط بالعراق صبيحة عيد الأضحى، حيث كان الجعد مسجونًا فحُمل إلى المسجد فراح الأمير يخطب ثم ختم كلامه قائلًا:"ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم" ثم نزل واستل سكينًا وذبح الجعد تحت المنبر وسط المصلين.

4- الجهم بن صفوان

ولد أبو محرز الراسبي المعروف بالجهم بن صفوان سنة 80هـ ومات ولم يبلغ من عمره الخمسين.

عرّفه الذهبي بأنه "الكاتب المتكلم، أُس الضلالة ورأس الجهمية، كان صاحب ذكاء وجدال، كان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه ويقول بخلق القرآن ويقول إن الله في الأمكنة كلها"، قُتل الجهم بن صفوان على يد الأمير سلم بن أحوز بأصبهان.يراً بين مؤيديها ومعارضيه.

وهناك متكلمون آخرون من امثال واصلبن عطاء (ت 748 م) ويونس الاسواري وعمرو بن عبيد (ت 762 م) ومنهم متكلمون آخرون منهم الحسن البصري الذي ينسب اليه القول بحرية الارادة.